

كريم مروة يتذكر: في ما يشبه السيرة

حاوره صقر أبو فخر

دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2002. 471 صفحة.

قدم صقر أبو فخر توصيفاً دقيقاً لشخصية محاورة كريم مروة بكلمات ثلاث: مناضل وسياسي ومفكر. ثم أضاف قائلاً: لكن كتابه هذا "ليس سيرة ذاتية فحسب، وليس خلاصة خمسين سنة من العيش المفعم بالسياسة والثقافة فقط، وليس تأريخاً لمرحلة عاصفة من مراحل اليسار اللبناني والحركة الوطنية اللبنانية، وليس مجرد طريقة في تذكر الأحداث والأشخاص، بل إنه ذلك كله معاً."

يعود كريم مروة إلى الفكرة عينها في المقدمة بقوله: إن هذا الكتاب "ليس سيرة ذاتية، مع أنه يشبهها، وأنه ليس تأريخاً للحقبة الماضية، رغم أنه يحفل بالكثير من أحداثها، وأنه ليس سجلاً فكرياً حول قضايا كانت، ولا تزال، مواضيع للجدل الدائم، رغم أنه يدخل في هذا السجال من أبوابه الواسعة. إنه، إذن، كتاب من نوع خاص، تمتزج فيه، وتتداخل، هذه الأمور كلها، مضافة إليها أمور أخرى، تتعدد أنواعها، وتتعدد مواضيع الحوار فيها وحولها. ولعله، بحسب توصيفي له وتوصيف محاور، أقرب إلى القراءة النقدية لحقبة بأكملها، هي حقبة نصف قرن من تاريخنا." وبعد أن يدعو مروة جيل الشباب، من اليمين واليسار ومن الحائرين في الوسط، إلى قراءة هذا الكتاب من أجل "الاطلاع على تجربة في النقد والنقد الذاتي"، يقول: "وأعتقد... أن اهتمام الأجيال الشابة بهذه التجربة، وبتجارب أخرى من نوعها، من شأنه أن يغني معارفها، ومن شأنه أن يربط، عند هذه الأجيال، في شكل أكثر صحة ودقة وعقلانية، بين القراءة النقدية للحقبة الماضية وبين البحث الراهن، الشاق والشائك، عن المستقبل، وعن الصيغة التي تصنع بها هذه الأجيال تاريخها في هذا المستقبل."

نقرأ في هذه السيرة لقطات سريعة عن طفولة كريم مروة، وعائلته، ودراسته

الأولى، وسفره إلى العراق، وتأثير حسين مروة ورئيف خوري في تكوينه الثقافي والسياسي. كما نقرأ أخبار رحلاته إلى كثير من دول العالم كمناضل أممي عايش أحداث المجر سنة 1956، وعاش في فيينا، وعاصر صعود خروتشوف وانهيائه، وتعرف عن كذب على أبرز مشكلات العالم العربي. وروى بعض تفصيلات القصة الحقيقية لاستشهاد القائد الشيوعي اللبناني فرج الله الحلو، وموقف الشيوعيين اللبنانيين والعرب من عبد الناصر والتجربة الناصرية. وتحدث عن علاقته بعدد من رجال الدين المتنورين، وعن دوره ورفاقه في تصحيح مسار الحزب الشيوعي اللبناني من خلال المؤتمر الإصلاحي سنة 1968. وقدم تفصيلات غنية عن علاقته الوثيقة بكمال جنبلاط، وعن دور الحزب في صوغ برنامج التغيير الديمقراطي في لبنان، وموقفه من القضية الفلسطينية ومن ممارسات قادتها في الساحة اللبنانية، ودور الحزب في إطلاق المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي للبنان سنة 1982، وموقفه من انتفاضة 6 شباط/فبراير 1984، ومن عهد الرئيس أمين الجميل.

ويقدم الكتاب تحليلاً معمقاً لظاهرة البيريسسترويكا وتداعياتها السلبية على النظرية الاشتراكية، وعلى الاتحاد السوفياتي والأحزاب الشيوعية في أغلبية دول العالم. هذا بالإضافة إلى صفحات مستفيضة عن شعارات التغيير والتجديد في الحزب الشيوعي اللبناني، وعن تحول شعارات التغيير إلى أزمة حزبية صعبة الحل. أخيراً، يناقش مروة الحلول المقترحة لمستقبل فلسطين، ومفهوم الدولة ثنائية القومية، ويحلل بعض سمات ظاهرة العولمة، وقضايا الثقافة والمثقفين، وتداعيات تجديد النقد والنقد الذاتي، وغيرها الكثير.

انطلاقاً من هذه الخلفية البسيطة لتاريخ غني أحاط بحقبة نصف قرن من تاريخ لبنان والعرب والعالم، وعلى قاعدة أن الكتاب يسترشد بمقولة "النقد والنقد الذاتي" المحببة لدى كريم مروة، يمكن أخذ الدروس والعبر من السيرة الذاتية لمناضل شيوعي مثقف، وهي سمة نادرة في صفوف مناضلي الأحزاب الشيوعية.

على جانب آخر، تكمن خصوصية هذه السيرة في أن المحاور كان شاهداً على صعود وانحيار الحركة الشيوعية في بلاد المركز السوفياتي وما ارتبط به من أحزاب شيوعية عربية. ومع ثبات القبضة الستالينية في المركز حتى بعد وفاة مؤسسها

وصولاً إلى انهيار الاتحاد السوفياتي سنة 1989، استمرت معها نماذج متفاوتة من القيادات الستالينية العربية طوال الحقبة عينها، إلى أن باتت الأحزاب الشيوعية العربية كلها تعيش حالة من التآزم والانقسامات المدمرة. لكن تلك النماذج لم تكن مقنعة على غرار ستالين، وكانت تفتقر إلى كاريزما الشخصية القوية التي تستر خلفها ذلك الفكر الستاليني الضحل الذي فرض على الأحزاب الشيوعية مقولات مغلوطاً فيها لا تمت إلى المقولات الماركسية - اللينينية بصلة.

مع ذلك، حرصت الأغلبية الساحقة من قيادات الأحزاب الشيوعية العربية على تقليد النموذج الستاليني في قمع الممارسة الديمقراطية داخل قواعدها المحلية بعد أن ابتعدت كثيراً عن الأسس النظرية والمبادئ الثقافية للماركسية - اللينينية، وفضلت عليها تعاليم ستالين وممارسات غدانوف القمعية تجاه الرفاق.

في المقابل، برزت قيادات أخرى يمكن تصنيفها بالقيادات المثقفة التي كانت في مواقع بارزة، لكنها لم تكن صاحبة القرار الأول في قيادة الحزب. وكانت، في الغالب، تستوحي النموذج الديمقراطي للأحزاب الشيوعية الأوروبية، ولا سيما تجارب الحزبين الشيوعيين في فرنسا وإيطاليا، التي شكلت ما عرف باسم ظاهرة الشيوعية الأوروبية. كانت ممارسات عدد من المثقفين في قيادة الحزب الشيوعي اللبناني، منهم كريم مروة، وخليل الدبس، ومهدي عامل، على علاقة وثيقة، في النظرية والتطبيق، بتلك الظاهرة، الأمر الذي جعلها في موقع العلاقة السيئة بالنموذج السوفياتي الذي فرض، حتى النهاية، بعض تقاليد الأبوة والهيمنة على الأحزاب الشيوعية العربية بصفته الشقيق الأكبر.

كان كريم مروة واحداً من أبرز مثقفي الحزب الشيوعي اللبناني في سعيه للخروج من دائرة المركزية البيروقراطية على الطريقة الستالينية. وكان في طليعة الداعين إلى القيام بإصلاحات داخلية مهمة داخل الحزب أولاً، وإلى التثقيف الذاتي ونشر الثقافة الديمقراطية في صفوف أعضاء الحزب ومناصريه. وقد أدى دوراً مهماً في المؤتمر الثاني للحزب سنة 1968، الذي شكل انعطافاً كبيراً في سياسة الابتعاد النسبي عن المركز السوفياتي. وبفضل مجموعات ثقافية متنامية تأثرت بصدقية الممارسة الديمقراطية التي عرفتتها ظاهرة الشيوعية الأوروبية، بات الحزب الشيوعي اللبناني،

أكثر من سائر الأحزاب الشيوعية العربية، على علاقة وثيقة وحميمة بعدد كثير من المثقفين، والفنانين، والمبدعين، وأصحاب المهن الحرة من ذوي الميول الديمقراطية. وقد نبهت تلك المجموعات إلى مخاطر غياب الديمقراطية داخل الحزب، الذي تعسكر بالكامل في ظروف الحرب الأهلية، وانتهى إلى تعطيل الحوار الداخلي بين رفاق الدرب الواحد. فاعتكف معظم مثقفي الحزب عن العمل، ووصل الحزب إلى أزمته المستمرة حتى الآن.

إن مذكرات كريم مروة شاهد حي على مسيرة نصف قرن من تاريخ الحزب الشيوعي اللبناني، بكل إيجابياتها وسلبياتها. وبقدر ما قدمت من معطيات تاريخية ووثائقية غنية جداً، كشفت عن مكامن الخلل في أولويات العمل الحزبي في لبنان من خلال صعود وانتكاسة الحزب الشيوعي اللبناني وباقي الأحزاب، الطائفية منها والعلمانية على حد سواء. وما اختزنته ذاكرة كريم مروة طوال تلك الحقبة يشكل مادة وثنائية لحوار خصب، وهي تساهم في تحليل مشكلات الحزب الشيوعي اللبناني، ومشكلات المجتمع اللبناني، ومشكلات حركة التحرير الوطني والقومي العربية، ومشكلات الحركة الشيوعية العالمية، بنماذجها المتنوعة. فقد كان كريم مروة، وما زال، شاهداً حياً على كثير من التبدلات التي طرأت على الفكر الشيوعي، في المركز والأطراف معاً. وكانت له مساهمات ثقافية نقدية هي من أفضل ما قام به مثقف ومناضل شيوعي على امتداد الوطن العربي. ويكاد يكون بين قلة من المثقفين الشيوعيين الذين تبنوا مقولات الإصلاح من الداخل، وحل المشكلات بين رفاق الحزب الواحد عن طريق الحوار الديمقراطي، وعدم التمسك بالمراكز القيادية في الحزب منعاً لتحويله إلى قلعة للجمود والتحجر على غرار باقي الأحزاب والمنظمات والأنظمة السياسية العربية.

أصر كريم مروة مراراً على نقد الجمود السياسي بكل تجلياته، وكان يأمل بأن يحذو حذوه باقي الرفاق في ممارسة النقد الذاتي من موقع المسؤولية الوطنية بهدف استخلاص الدروس والعبر، انطلاقاً من المقولة التي ترى أن الشلل الذي أصاب قوى التغيير سينعكس سلباً على جميع مؤسسات المجتمع المدني فيتعطل دور القوى الحية داخلها. وعلى هدي مقولة "النقد والنقد الذاتي"، التي تتكرر باستمرار في مذكرات كريم

مروة، حرصنا على تقديم صورة حية لمسيرة هذا المثقف والمناضل الشيوعي الغنية، بكامل تناقضاتها الملآنة بالأحداث والمشاهدات والوقائع الصادقة.

تقدم هذه السيرة الدليل على أهمية الحزب الشيوعي الذي شكل مدرسة حقيقية تعلم فيها الإنسان الشيوعي دروساً غنية في النضال السياسي والتثقيف الذاتي. فبعد طفولة عادية ومرحلة من اكتساب العلم والمعرفة في مدارس لبنان والعراق، عمل الشاب كريم في التدريس الابتدائي في قرية بقاعية نائية، ثم دخل الجامعة اللبنانية لفترة زمنية قصيرة تدرب خلالها على أساليب النضال المطلوب أكثر من مواظبته على دروسه الأكاديمية. فتعلم الكثير الكثير في مدرسة الحزب ومدرسة الحياة. فالمناضل الشيوعي الحقيقي على استعداد للتخلي عن اكتساب الثقافة الأكاديمية من دون أن يتخلى عن هاجس التثقيف الذاتي والغرف من مصادر الثقافة الإنسانية ومدرسة النضال اليومي. فقد كُلف مروة مهمات حزبية في مؤسسات شبابية في بودابست وفيينا وهلسنكي وموسكو وغيرها، حيث وصل من خلال النضال الحزبي إلى أعلى المنابر الديمقراطية العالمية، وتعرف من خلال التثقيف الذاتي على الثقافات الحية في العالم، كما تعلم سبل الحوار الديمقراطي والانفتاح على الآخر. ومن خلال المثابرة أصبح كريم مروة نموذجاً يحتذى لكثير من المثقفين العرب الطليعيين، وواحداً من أكثر القادة الشيوعيين العرب استعداداً للحوار الديمقراطي مع الآخر، ومن موقع الاحترام المتبادل. وهذا ما جعله يتخلى طوعاً عن أي مركز في قيادة الحزب تسهيلاً لحل الأزمة الناشبة داخل قيادة حزبية لم تحسن قراءة التاريخ واستخراج الدروس والعبر منه. فانهدام الحوار الديمقراطي بين رفاق الدرب الواحد داخل الحزب الشيوعي اللبناني هو أقصر السبل لتدمير الحزب من الداخل، وتمزيق اللحمة بين قادته أولاً، وبينهم وبين قواعده ثانياً. وعندما فشل كريم مروة في مساعيه التصالحية فضّل التخلي الطوعي عن كامل مهماته الحزبية، ومنها نائب الأمين العام للحزب، من دون أن يتخلى عن هاجس تطوير الفكر الاشتراكي إلى أن تعود إليه فاعليته في التغيير الديمقراطي، في لبنان وعلى المستويين العربي والعالمي.

حين يقرأ شباب اليوم مذكرات كريم مروة يتعرفون من خلالها على سيرة مناضل شيوعي صلب تعرض لمخاطر كثيرة، منها عدة محاولات اغتيال أعقبتها فترات من

التشرد. إلا إنه لم يؤمن يوماً بالقوة كحل لأي من المشكلات السياسية. فثقافته إنسانية سمحة تزودها من مصادر دينية ومدنية متنوعة، الأمر الذي جعله يؤمن بلغة الحوار الديمقراطي للخروج من الأزمات المستعصية التي تهدد الحزب والوطن والتراث الإنساني. وفي ختام مذكراته يعود كريم مروة إلى البداية مستذكراً دفء العلاقات العائلية، مع حنين دائم إلى تحقيق شعار الحزب منذ الثلاثينات: "من أجل وطن حر وشعب سعيد".

دعا كريم مروة شباب اليوم إلى قراءة كتابه قراءة نقدية لاستخلاص الدروس والعبر من تجربته النضالية الغنية. ومن حق شباب الحزب عليه، ومعهم شباب لبنان، أن يقدم إجابة عن عدد من الأسئلة المرحجة التي لم يفتن إليها محاوره. إذ يحق لكريم مروة أن يفخر بأنه انتسب ذات يوم إلى حزب طليعي سنة 1952، ورث تجربة غنية من النضال ضد الانتداب الفرنسي، وضد القوى اللبنانية المحلية التي جاءت من بعده وورثت عنه أساليبه القمعية، بل أضافت إليها الشيء الكثير. وقد بقي الحزب متماسكاً على الرغم من كل التدابير القمعية التي تعرض لها، وتحول بعد مؤتمره الثاني إلى واحد من أبرز الأحزاب الشيوعية الفاعلة في الوطن العربي. وحظي باحترام جميع الأحزاب والمنظمات الديمقراطية في العالم التي دفعت بعدد من كوادره، ومنهم كريم مروة، إلى مراكز مهمة لإيصال صوت الحزب إلى المنابر الدولية.

ونظراً إلى تماسك الحزب وتمسك أعضائه بروح الديمقراطية، استطاع أن يجمع حوله نسبة كبيرة جداً من أفضل المثقفين والمبدعين اللبنانيين. وقد تجسد ذلك التضامن عملياً من خلال التظاهرة الثقافية والفنية الرائعة في احتفالات الذكرى الخمسين للحزب الشيوعي اللبناني سنة 1975.

إن قراءة هذه السيرة تعري دور بعض القيادات في تراجع موقع الحزب واستفحال أزمته الداخلية. وأغلب الظن أن الشباب اللبناني لن يستجيب لحوار سياسي وثقافي مع حزب تساهم قيادته في إبعاده عنهم، وخصوصاً أن تجربة كريم مروة الحزبية فسحت له المجال كي يتحول من معلم في مدرسة ابتدائية في قرية بقاعية معزولة إلى مثقف ذي شهرة عربية ودولية، في حين أن انتساب شباب اليوم إلى الحزب لا يقدم لهم سوى المزيد من الإحباط ومخاطر الطرد العشوائي وغير المبرر من عضوية الحزب. وهنا يبرز

بعض الأسئلة الحساسة: لماذا ابتعدت عن الحزب أغلبية مثقفيه؟ ولماذا أصبحت أزمته مستعصية الحل؟ ولماذا كل هذا الحذر في نقد العلاقات غير الصحية بين الرفاق، ومع بعض القيادات الفلسطينية، ومع بعض قادة الأحزاب الشيوعية العربية؟ ومن هو أقدر من كريم مروة على تعرية مكامن الخلل في النظرية والممارسة لدى قيادة الحزب الشيوعي اللبناني، والقيادات الشيوعية العربية، والقيادات الفلسطينية، لبناء علاقات أكثر علمية وأقل تشدداً في مجال الخيارات الأيديولوجية؟

لا شك في أن أهمية المذكرات تكمن في تحولها من سيرة ذاتية ماضوية إلى مسار مستقبلي ينير الطريق للرفاق الجدد. وذلك يتطلب نقداً أكثر جرأة ولأولويات عمل الأحزاب الشيوعية العربية، وللمنظمات السياسية العربية والدولية التي عايشها كريم مروة عن كذب يوم كانت تعبر عن مصالح الملايين من الشباب العربي والعالمي. لكن تلك المنظمات انهارت بسبب مكامن الخلل داخلها قبل أن تنهار تحت وطأة صراع غير متكافئ مع الإمبريالية المتجددة بزعامة أميركية. فسيرته الذاتية التي دونها في هذا الكتاب لم تعد تعبيراً عن تجربة شخصية، وإنما هي منهج عمل ملك لأجيال متلاحقة من الشباب اللبناني والعربي.

ختاماً، كم نحن بحاجة إلى استعارة عناوين مثيرة لرجال كبار من أمثال الشيخ عبد الله العلايلي في كتابه "أين الخطأ؟" فاستمرار الأوضاع الراهنة على ما هي عليه سيجعل من المذكرات مجرد ذكريات مجيدة لمناضل بارز دخل تاريخ لبنان والحركة الشيوعية العربية من بابه الواسع. ويبقى السؤال المعاكس: ما قيمة التاريخ الذهبي إذا لم يتحول إلى تاريخ حافظ لبناء حاضر مشرق ومستقبل أكثر إشراقاً؟ وما أهمية التاريخ المجيد لحزب عريق دفع بعض قاداته ومثقفيه إلى الترقى السياسي والثقافي إذا تحول إلى حزب يطرد شببيته لأسباب واهية ولا يخطط للاستفادة القصوى من ديناميته في بناء المستقبل؟ وهل أفضل من التذكير هنا بصرخة ماياكوفسكي الشهيرة: "الشيوعية شباب العالم"؟

يقيني أن هذه السيرة تتمتع بنسبة عالية من الصدق لأن المحاور قصرها على أحداث عايشها وشارك فيها من موقع الفاعل. لذا شعر رفاق دربه ومعاصروه بأنه تكلم باسمهم جميعاً، وبأن الأزمة الحادة التي يعيشونها تجد تعبيرها الواضح في

اعتكاف "المناضل الشيوعي والمثقف" كريم مروة عن العمل الحزبي بعد أن استفحل الخلاف بين القوى المتصارعة. فانصرف في القسم الأخير من هذه السيرة أو المذكرات، وتحديداً بعد تخليه الطوعي عن المراكز الحزبية، إلى مناقشة كيفية تجديد النظرية الاشتراكية، في الفكر والممارسة معاً، لولوج آفاق التغيير التي تحدث عنها صاحب السيرة في أكثر من مقالة وكتاب خلال الأعوام القليلة الماضية.

بعبارة أخرى، لم يتقاعد هذا القائد الحزبي بعد، وليس في قدرته أن يتقاعد وهو يرى احتدام أزمة الأحزاب الشيوعية من حوله. وحين دعا جيل الشباب إلى قراءة تجربته الشخصية المتميزة فمن أجل نقدها والاستفادة منها لإطلاق حركة سياسية شاملة تحتضن خبرة القدامى وحماسة الشباب، مع الحرص على تثقيف جيل الشباب بثقافة ثورية لمواجهة تحديات عصر العولمة وثقافتها، وتساهم في بناء حزب طليعي من نوع جديد.

مسعود ضاهر

مؤرخ لبناني

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>